كيف يعد هذا الكتاب عملاً جامعًا للباحثين والإعلاميين المتخصصين؟

صدر هذا الكتاب ليصاحب الحلقات المصورة (الثلاثمائة والخمسة والستين يومًا الأولى من عمر الطفل). تم اختيار خمسة أطفال أصحاء من قبل علماء بمركز الأطفال ومعهد طب المجتمع للأطفال والمراهقين بجامعة ميونخ وكان يتم تصويرهم كل أربعة أسابيع، كما كان يتم تصوير نماذج السلوك والحركات المميزة فوتوغرافيًا وفقًا لتعليمات العلماء. وستظهر فيما يلي ثمار الجهود المشتركة التي بذلها الباحثون والإعلاميون المتخصصون.

كان علينا أن نأخذ خمسة أطفال؛ لأن السنة الأولى غالبًا ما تكون مليئة بالأحداث، إذ إنه من الممكن أن يمرض طفل، أو يتأخر في النمو. كما أنه من الممكن في الحقيقة أن يدلل الوالدان طفلهما فلا نتمكن من تصويره والتقاط الصور الفوتوغرافية له خلال عام بأكمله. كان اختيار خمسة أطفال أيضًا أمرًا ضروريًا؛ لكي نتمكن من عرض الفروق الشخصية للنمو الطبيعي. فإنه من الواضح أن الطفل البدين يتأخر في مراحل نموه الأولى عن نظيره رشيق القوام والنشيط، كما أننا رغبنا أيضًا أن يشاركنا طفل أسمر البشرة، ولم يكن سهلًا أن نجد مثل هذا الطفل.

الأطفال المشاركون هم أندريا وفرانك ومريام وسيان ودانيلا، وبعد ذلك إيفا وكريستينا وكريستيان كاحتياطيين، وقد ظلوا جميعًا لحسن الحظ أصحاء ولكنهم كانوا مختلفين: فمنهم من كان نموه سريعًا، ومنهم من تأخر في نموه، وتباين الآخرون بين هذا وذاك. وكان من الأفضل ألّا نواجه مثل هذه الأشياء. كان استقبال الأطفال في الشهور الستة الأولى من عمر الأطفال يتم في مركز

الأطفال بميونخ، ولكن عندما أصبح الأطفال يتفاعلون مع البيئة المحيطة بهم كان علينا أن نقوم بالتصوير والتقاط الصور بالمنازل.

سواء كان التصوير بالمنازل أو بمركز الأطفال فإننا كنا نحتاج إلى مكان كاف. فكان لا بد أن يبقى منتصف الغرفة خاليًا لتصوير المشاهد، وكان من الضروري أيضًا توفير مكان ملائم لوضع الكاميرا ومعدات الصوت. كما تم وضع الإضاءة، وأخيرًا كان لا بد من أن يتواجد الباحثون والإعلاميون المتخصصون بكل مشهد لإسداء النصائح والإرشادات، ودائمًا ما كانوا من ثمانية إلى عشرة أشخاص.

وقبل تصوير أي مشهد قمنا بعمل بروفة على السيناريو دون تصوير، حتى نصبح راضين عن المشهد، بالطبع كان الأمر لا يتطلب ممثلين ولكن تم إعطاء التعليمات للأمهات والتي يجب أن ينفذنها مع أطفالهن.

وبعدما عرفت الأمهات جيدًا التعليمات المطلوبة منهن سمح ببدء التصوير «كلاكيت» وهذا عبارة عن قطعة سوداء في حجم كراسة المدرسة، الجزء الأسفل منها على هيئة مقص يجعله يفتح ويغلق، كان مساعد المصور يغلقه قبل بدء التصوير الفعلي لكل مشهد.

ولكي نتجنب حدوث أي التهابات في لحمية عين الطفل كان علينا ألّا نوجه الضوء بطريقة مباشرة على الطفل.

تم التصوير داخليًّا (داخل غرفة) فكان جو الغرفة دافئًا أو أكثر من دافئ، كما كانت درجة الحرارة بالنسبة لنا محرقة؛ لأن النوافذ دائمًا ما تكون مغلقة في الصيف وذلك بسبب الضوضاء في الشوارع، وفي الشتاء قمنا بتدفئة الغرفة بدرجة كبيرة حتى لا يصاب الأطفال الرضع العراة بالبرد.

كما بذل مهندس الصوت، والذي يقوم بضبط الصوت حتى يصل إلى أنسب صوت ممكن،جهدًا كبيرًا، وغالبًا ما كانت تمر سيارة الإسعاف بصوت سرينتها الجهور وتضيع علينا التصوير، وهذا يعني مما لا شك فيه إعادة التصوير.

وتكمن المشكلة في التقاط الصور الفوتوغرافية في تحديد الوقت الذي يتم فيه التقاط الصور، فأثناء التسجيل قد يمنع رجل الكاميرا التقاط الصور، حيث من الممكن أن يظهر صوت الضغط على زر آلة التصوير الفوتوغرافي على شريط التسجيل. من الأفضل أن يتم التقاط الصور أثناء وضع فيلم التسجيل في الكاميرا أو عند نهاية التسجيل، ولكن هذا يعد أمرًا ليس سهلًا؛ لأنه بعد نهاية التسجيل وعندما حان وقت التقاط الصور أخيرًا فإن الأطفال أصبحوا في الغالب متعبين، قام المصور بتغيير وضع الإضاءة، حيث جعلها تسقط من اتجاه آخر، وكان يتبع تعليمات الأطباء والباحثين السيكولوجيين، وذلك أثناء إنهاء فريق التصوير عملهم، وعبر عن خالص أمانيه للأمهات والتقط عدة صور.

كان يتم تحديد مواعيد التسجيل وفقًا لمواعيد نوم الأطفال وتناول رضعاتهم؛ لكي لا نزعج الأطفال بقدر المستطاع، بالإضافة إلى رغبتنا في أن يكونوا مرحين أمام الكاميرا؛ لذلك كان يتم تحديد مواعيد التسجيل بالاتفاق مع الأمهات. وقد أرشد الأطباء بحمل الأطفال الذين نالوا قسطاً من نومهم وتناولوا رضعتهم بعد ذلك على الأكتاف؛ لذلك كان من الطبيعي أن نجد غالبًا أثناء التصوير في المنازل قصاصة ورقية على باب المنزل (من فضلك لا تدق الجرس، الطفل ما زال نائمًا، سأنزل إليك).

فقام فريق التصوير بحمل أدواتهم الثقيلة التي يحتاجون إليها في التصوير وصعدوا على أطراف أصابعهم إلى الشقة وجلسوا في صمت ينتظرون في صبر استيقاظ الأمير أو الأميرة. ربما كان تأخير الميعاد ليس له فائدة تذكر؛ لأن الطفل نفسه كان يقظًا بالفعل قبل وصولنا؛ لذا كان علينا أن نجهز أدواتنا ونبدأ بأقصى سرعة فإن مزاجه ربما يتعكر.

وقد فاجأنا الطفل ذو البشرة السمراء، فكنا ننتظر في لهفة إلى أي مدى ستظهر الكاميرا سمار بشرته، ولكن انظر فقد أخرجت الأم ذات البشرة السمراء طفلًا أبيض من اللفة، فارتسمت خيبة الأمل على وجوه البعض، فهمس أحد الأفراد

في الحال (ربما تم تبديل الطفل أو أن والده أبيض البشرة) فكيف كان بإمكاننا جميعًا أن نعرف أنه من الممكن أن يولد طفل أبيض لوالدين أسمرين! قد ظل ثلاثة أشهر كاملة إلى أن اسمرت بشرته، وقد تمكنا من تسجيل نمو الطفل منذ أن كانت بشرته فاتحة إلى أن اسمرت بشرته.

عرفت الأمهات بدقة في وقت قصير متى تم تشغيل الكاميرا وأن مهمتهم تبدأ بعد إعطاء إشارة البدء بالتصوير.

لا يتم تحديد الأدوار حسب ترتيب الحوار ولكنه يتم تلقائيًا تبعًا لحالة الأطفال، وبالتالي وجدنا أنه من الأفضل أن نرقب النمو الاجتماعي واللغوي للأطفال، ماداموا مرحين، وفي النهاية تمامًا نراقب الزحف والجلوس والمشي ...إلخ.

وقد أثبتت التجربة أنه على أية حال لا يمكن إجبار الأطفال على أي شيء.

يتم تغيير فيلم التسجيل عادة كلما تطلب الأمر ذلك، إلا أنه من اعتقد أن بإمكانه إطعام الطفل خلال فترة تغيير فيلم التسجيل قد أخطأ التقدير تمامًا، بل على العكس فعلى الأطفال خلال فترة الراحة الطارئة أن يلتزموا بما جاء في الحوار؛ حيث إنه عندما توجه إليهم الكاميرا يصرخون طلبًا للرضعة أو بكل بساطة لا يصبح لديهم الرغبة في استكمال التصوير.

كان علينا أحيانًا أن نستخدم كل الوسائل الممكنة: نخاطبهم بلطف، نبتسم، نقوم بعمل حركات بالوجه، نقدم لهم الألعاب المفضلة لهم، نحلل الآراء الطبية والسيكولوجية و التربوية... إلخ، ولكن كل هذا بلا جدوى. فأصبح أفراد فريق العمل في حيرة من أمرهم وجالوا بأبصارهم باحثين عن مساعدتي، كان عليّ أن أتوقف ونأخذ قسطًا من الراحة ثم طلبت من فريق العمل البقاء في الغرفة الصغيرة المضاءة في انتظار أن يتراجع الصغار عن موقفهم. إلا أنه صادفنا فقط ذات مرة بعد إنهاء التصوير وخروج الجميع أن ظهر الطفل في أفضل حالاته كأنه في انتظار اختفاء هؤلاء الكبار.

كنـا ننتظر في جو حـار وغالبًا كان الأمر مجديًا، ولكن في بعض الأحيان كنا نتصرف بحلول وسـطية وكان علينا أن نرضى بها. بالطبع كان كل شيء يسـير على قدم وساق دون أي إعادات.

في اليـوم التالي أخذت المادة المسـجلة للنسـخ، وهناك تـم تحميض الأفلام والآن جـاء وقـت السـؤال المريـب، إذا كان كل شيء على ما يـرام. فكان علينا أن نسـجل من جديد النسـخ التي لم يتم تحميضها وللتصوير الإضافي لا بد من تواجد كل المشاركين مرة أخرى، وهذا لم يكن على الإطلاق بالأمر اليسير.

إنـه لمن المعـروف أن الأطفال الصغـار يبلون لفافهم؛ لذلـك كان علينا أن نفـرش لأطفالنا قطعة كبـيرة من قماش الكتان(ملاءة) عـلى منضدة الأبحاث، وكانوا بالطبع يقضون حاجتهم عليها، وكان هذا يحدث أكثر من مرة في ساعة واحـدة، وهذا كان يعني لنا التوقف حتى تتـم عملية تغيير الملاءة بسرعة؛ فقد كنـا نرصهـا في مكان قريب منا حتـى تكون دائمًا في متنـاول أيدينا، وقد أصبح هذا روتينًا بالنسبة لنا.

كان علينا ملاحظة شيء ما: أن البنات تبل فقط الملاءة، أما الأولاد فيبلون بالتأكيد المنطقة المحيطة بهم(بخطورة)، حيث إنهم مستلقون على ظهورهم.

ولكـن مـن الـذي يفكـر في ظل هـذه الحـرارة القاسـية في التركيب البنيوي للصبيان.

وكان مهنـدس الصـوت هو الضحيـة الأولى الـذي كان عاكفًـا في هدوء بجوار منضدة الأبحاث مع الأجهزة والميكروفونات، في الوقت الذي كان فيه سـيان في أحسن حالاته المزاجية وهو يلعب بشخشيخة، وفجأة رأينا مهندس الصـوت يقفز محاولًا إنقـاذ كل الأجهزة والميكروفونـات، فقابلته النافورة في وجهـه، فما كان علينا إلا أن نضحك جميعًا والمتضرر أيضًا، فقد كان أمرًا مثيرًا للضحك حقًّا.

وكان يسعدنا دائمًا مشاركة أحد الآباء معنا؛ لأنه يتولى مهمة التغيير، فالأطفال المشاركون معنا كلهم يمثلون المولود الأول لوالديهم، لذلك فمن المؤكد أنهم الأطفال المنتظرون، وبالتالي كان الآباء عطوفين حنونين بشدة فكانوا يعتنون بأطفالهم بحب سواء أمام الكاميرا أو خلفها. أحيانًا كان الأمر بالنسبة لنا مثل مباراة كرة القدم؛ حيث ينتظر تسجيل الأهداف وقد يصاب أفضل اللاعبين أو لا يكون في حالة مرضية، فالأمر هناك مثلما هنا لا يعتد إلا بالنتائج أي النتيجة النهائية، وبالمباراة قد لا يحدث أي شيء أو ربما يتم ذلك فقط في الثواني الأخيرة، ويعد الاختلاف بالنسبة لنا والعائق: بالنسبة للرياضة هناك العديد من الكاميرات مستعدة للتسجيل أما بالنسبة لنا فلدينا كاميرا واحدة.

تمثل أندريا الهدف بالنسبة لنا، فهي بنت رقيقة مليئة بجاذبية لا تقاوم، حتى أثناء الإعادة تبقى مطيعة كما هي، كما لو كانت صورتها الأولى تنعكس في المرآة تبحث خلفها دائمًا عن طفل آخر، فهي دائمًا ما تمتعنا حتى بعد انتهاء التصوير، وذات مرة كان يكفينا (الهدف) نفسه.

ظللنا أكثر من سنة نبحث عن أم ما زالت ترضع طفلها في الشهر الثاني بالإضافة إلى أن تكون صديقة للكاميرا.

وما كان لنا أن ننجح في الوصول إلى مثل هذه الأمهات إلا بمساعدة جريدة في ميونخ أعلنت عن احتياجاتنا. كثيرٌ من السيدات الحوامل، بعضهن ما زال في الأشهر الأولى من الحمل، اتصلن بنا هاتفيًّا أو أرسلن لنا خطابات، وفي الغالب كان أكثرهن سيدات ينتظرن مولودهن الأول وليس لديهن أي سابق معرفة بالمراحل الأولى في نمو الطفل.

كن يعتقدن أن الرضاعة الطبيعية ليست ضرورية ويمكن الاستغناء عنها، فهي فقط تؤثر على جمال شكل الثدي. أثناء الرضاعة تعود الأم التي وضعت طفلها تدريجيًّا في وقت قصير إلى طبيعتها، ونادرًا ما تصاب الأم المرضع بسرطان الثدي، فالأطفال الذين يرضعون طبيعيًّا لديهم مناعة أكثر ضد الأمراض، كما

أن نموهم الاجتماعي أفضل بكثير من أقرانهم الذين لم يرضعوا طبيعيًّا، هذا ما عرفه الكثيرون من خلال عملنا. الآن أرادت السيدات معرفة المزيد وطرح التساؤلات فأدركنا بشكل كبير مدى فائدة هذه الحلقات المسجلة.

فكلما شعرنا باليأس خلال فترة عملنا بالتسجيل ـ والتي استغرقت عامين ـ كنا نعزي أنفسنا برغبتنا في مساعدة الوالدين، وأتمنى أن يتحقق هذا أيضًا من خلال هذا الكتاب.

في النهاية أود أن أشكر الآباء والأمهات الذين ظلوا بجانب أبنائهم طوال الوقت من أجل أن تصبح الحلقات المسجلة والكتاب متاحة للجميع، ورغم المشقة التي تعرضوا لها أثناء التصوير، فإنهم قاموا بدورهم على خير وجه.

إميلي فون زاركوتسي ـ كرنر